

التجارة بين ماري ويمحاض في القرن الثامن عشر قبل الميلاد

تعد محفوظات ماري الملكية المصدر الرئيس لتاريخ سورية وبلاد الرافدين في القرن الثامن عشر قبل الميلاد. فهي تعطينا صورة عن العلاقات السياسية والاقتصادية المتينة التي كانت تربط مدن وممالك بلاد الرافدين وسورية مع بعضها، مثل ماري وبابل وأشور ويمحاض وقطنا وحاصور وجبيل وغيرها. وتكتسب هذه المعلومات أهمية كبيرة جداً بسبب غياب مصادر معاصرة لها، سواء من بلاد الرافدين أو من الممالك السورية القديمة. فحلب التي كانت عاصمة مملكة يمحاض مثلاً، لا يمكن أن تجري فيها أية حفريات أثرية بسبب العمران البشري المستمر والمتواصل منذ العصور القديمة وحتى الوقت الراهن.

نعرف من خلال هذه المحفوظات، أن سورية في القرن الثامن عشر قبل الميلاد كانت مؤلفة من العديد من الممالك القديمة، وأشهرها مملكة يمحاض التي كانت تقوم في الجزء الشمالي منها، ممتدة من سواحل البحر المتوسط في الغرب حتى الفرات في الشرق، ومن جبال طوروس في الشمال حتى حماة وحمص في الجنوب. واشتهر من ملوكها ياريم ليم الأول، الذي يرد ذكره في إحدى رسائل محفوظات ماري كأحد أقوى ملوك بلاد الرافدين وسورية:

"لا يوجد ملك قوي لوحده. عشرة ملوك (أو) خمسة عشر ملك يتبعون حمورابي ملك بابل، ومثلهم ريم سين ملك لارسا، ومثلهم إيال بيل ملك إشنونا، ومثلهم أموت بيل ملك قطنا، (و) عشرون ملك يتبعون ياريم ليم ملك يمحاص"^(١).

ووجد زمري ليم آخر ملوك ماري ملجأً لديه بعد أن سقطت ماري بيد شمشي أدد الأول، العاهل الآشوري القوي، ودخل معه فيما بعد في علاقة مصاهرة، وذلك بالزواج من ابنته شيبنتو، فمنّ بذلك العلاقات بين مملكته ومملكة يمحاض.

وتظهر هذه العلاقات قوية أيضاً في المجال التجاري، حيث تتحدث نصوص متعددة من محفوظات ماري الملكية عن المنتجات المختلفة التي كانت ترسل من حلب إلى ماري أو العكس.

فالخمر (بالأكادية كرانوم) كان يرسل من يمحاض إلى ماري. فحسب أحد النصوص، أرسل ياريم ليم الأول ملك يمحاض، ضمن ما أرسل، مائة جرة خمر إلى ماري^(٢). وفي نص مهمور بخاتم زمري ليم، سُجّلت إرسالية مؤلفة من خمس جرار خمر من حمورابي إلى ملك يمحاض (ابن ياريم ليم الأول) إلى المستودع في ماري^(٣).

ويُشار في رسالتين من زمري ليم إلى زوجته شيبنتو إلى الخمر الأحمر (كرانوم سَموم) الذي أرسله حمورابي ملك يمحاض إلى ماري^(٤). ويجري الحديث في رسالة من كيري داجان حاكم ترقا إلى سيده زمري ليم، عن سفن أناس من إيمار كانت تنقل خمر^(٥). فيذكر كيري داجان أنه، حسب توجيهات سيده، وبمساعدة ساقى أتمروم ملك أنداريق (من المعتقد أنها في شمال بلاد الرافدين)، اختار من حمولة خمر السفن التي من إيمار تسعين جرة خمر وأرسلها مع إحدى السفن إلى أنداريق. أما بقية جرار الخمر فقد أُرجعت، ربما إلى إيمار.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا أُرجعت هذه الجرار، ولم يسمح لها بمتابعة سيرها مع الفرات، وما نوع هذه العملية، هل كانت عملية تجارية بوساطة ملك ماري؟ على أية حال، من المؤكد أن هذا الخمر جاء من شمال سورية، إما من كركميش، أو من يمحاض. علماً أن الخمر من شمال سورية كان يصل ماري غالباً عن طريق

الفرات. فالخمر من كركميش وما جاورها كان يشحن مباشرة مع الفرات. أما الإرساليات من يحاض، فكانت تأتي عن طريق إيمار، ميناء الفرات المعروف. وكانت توجد سفن متخصصة في نقل الخمر وتدعى إليبات كرانيم (eleppat karanim): سفن خمر (بالمفرد إليب كرانيم). وتتراوح حمولتها ما بين مائة جرة للسفن الصغيرة وثلاثمائة جرة للسفن الكبيرة. فإذا قدر محتوى الجرة بعشرة قا qa (نحو عشرة لترات)، فتكون سعة السفينة الصغيرة نحو ألف لتر، والكبيرة نحو ثلاثة آلاف^(٦).

من الجدير بالذكر أن المستهلك الرئيس للخمر في ماري كان القصر الملكي. بالإضافة إلى ما تقدم، توجد عدة نصوص أخرى تتحدث عن سفن كانت تنقل الخمر مع الفرات باتجاه الجنوب^(٧). وعلى الرغم من أن بلد المصدر والبلد المرسل إليه غير مذكورين، فيمكن الاعتقاد أن هذا الخمر جاء من شمال سورية، إما من كركميش أو إيمار، ونقل نحو الجنوب الشرقي، إما إلى ماري أو إلى بلاد بابل.

وهناك نص يذكر أن ١٤٤ جرة خمر، جبيت كمكس في محطة للجمارك عند ترقا، يبدو أن هذه الكمية أخذت كضريبة عن سفن كانت تحمل خمرًا وقادمة من شمال سورية أيضاً.

بالنسبة لأسعار الخمر في ماري فالقا qa الواحد (نحو لتر واحد) كان يكلف نحو ١٠٠/٦ شيقيل فضة. وهذا السعر هو أعلى بعشر مرات من سعر الشعير وأقل تقريباً بمرتين من سعر زيت الزيتون^(٨).

ويذكر أحد النصوص أن سعر جرة خمر يساوي نصف شيقيل فضة^(٩).

العسل: (بالأكادية ديشبوم)

يظهر العسل من سورية في نصوص ماري مرات متعددة. فياريم ليم الأول ملك يحاض أرسل مرة ضمن ما أرسل عشر جرار عسل إلى ماري^(١٠). من الجدير بالذكر أن العسل كان يستخدم غذاءً للملوك وفي الوصفات الطبية.

زيت الزيتون: (بالأكادية شَمَن سِرديم)

كانت سورية منتجة كبيرة لزيت الزيتون، ويصدر منها إلى مصر وبلاد الرافدين. وتذكر نصوص ماري إرساليات متعددة منه إلى ماري. ففي إرسالية من ياريم ليم الأول تُذكر ضمن ما تُذكر ١٨ جرة زيت زيتون^(١١). وتُذكر في نص من عهد زمري ليم كمية من زيت الزيتون كإرسالية إلى القصر^(١٢). من المؤكد أن هذا الزيت جاء إما من كركميش أو من محاض. وقد جُلب إلى ماري من قبل شخص يدعى kutkutum، يبدو أنه جاء من شمال سورية، وكان على ما يبدو قائلًا قافلة أو تاجر. غير أن إجمالي الكمية التي جلبها معه غير معروفة. ومعروف فقط أنه أعطى أحد موظفي القصر نحو ١٢ هيكو ليدر (نحو ١٢٠٠ ليدر)^(١٣).

يبرهن هذا النص أن زيت الزيتون كان يُصدر بكميات كبيرة من سورية إلى ماري.

ويوجد نص آخر يشير إلى زيت من مملكة محاض، إذ يذكر ٢٧٧ جرة زيت (karpat šamnim) تُبذلت مع ١ Ugar و٧ كور و٣٧ قازيت (نحو ٣٣٣٧ ليدر)، التي جلبها نورسين من ألاختوم^(١٤).

إن هذه المبادلة كما هو واضح مبادلة زيت زيتون مع زيت سمس. وزيت الزيتون منشؤه منطقة حلب. لأن المرسل تورسين كان ممثل زمري ليم ملك ماري في بلاط حلب. والمكان الذي أتى منه الزيت (لاختوم) يتبع مملكة محاض. كان زيت الزيتون يستخدم في ماري للتغذية وللمسح ولأغراض طبية.

الأخشاب: (بالأكادية إصوم)

كانت منطقة الجبال الساحلية ولا تزال غنية بالأنواع المختلفة من الأشجار، التي كانت مرغوبة في مصر وبلاد الرافدين لأغراض البناء المختلفة. فقد مكنت كميات

الأمطار الهائلة سنوياً بكميات كبيرة في هذه المنطقة من نمو أشجار الأرز والسرو والصنوبر والبلوط والبقس والعرعر وغيرها، بحيث أن جبال هذه المنطقة سُميت نسبة إلى غناها بهذا النوع أو ذاك من تلك الأشجار. فجبال الأمانوس عُرفت "بجبال الأرز" أو "غابة الأرز"، وجبل لبنان عُرف "بجبل السرو"، وعُرف جبل حرمون "بجبل الأرز" أيضاً.

وعلى الرغم من عدم وجود إشارات مباشرة إلى تصدير الأخشاب من يحاض إلى ماري، فإن قرب هذه الجبال من يحاض مع وجود إشارات غير مباشرة في نصوص ماري يؤكد قيام مثل هذه التجارة، حيث كانت الأخشاب تُنقل من الجبال المذكورة عبر منطقة يحاض حتى شواطئ الفرات، ثم تُنقل من هناك مع تيار النهر إلى ماري وإلى بلاد بابل.

ويتحدث يخدون ليم ملك ماري في وثيقة تأسيس معبد شماش، إله الشمس في ماري، عن حملة له وصل فيها إلى شواطئ البحر المتوسط وقطع أشجار الأرز والسرو والبقس والصندل في جبالها العالية: "منذ الأيام الغابرة عندما بنى الإله ماري، ما من ملك مقيم في ماري وصل البحر وفتح جبال الأرز والبقس، الجبال العالية وقطع أخشابها. يخدون - ليم بن بجبد - ليم الملك القوي، الثور البري (بين) الملوك ذهب ببراعة وقوة إلى شاطئ البحر، لـ (إله) المحيط ضحى ضحايا الملكية الكبيرة، وجنوده في وسط المحيط استحموا. في جبال الأرز والبقس، والجبال العالية دخل هو، البقس والأرز والسرو والصندل، هذه الأشجار هو قطعها"^(١٦).

وقبله قام جوديا أمير لاجاش (٢١٤٣-٢١٢٤ ق.م) بالحصول على الأخشاب من جبال الأمانوس^(١٧). يستنتج من كل ما تقدم وجود تجارة مزدهرة للأخشاب من يحاض إلى ماري.

القصدير: (بالأكادية أناكوم anákum)

احتاج المرء القصدير في الشرق القديم لإنتاج البرونز، وذلك يخلطه مع النحاس. وقد ازدادت الحاجة إليه بشكل كبير في العصر البرونزي الوسيط كما تدل على ذلك الوثائق المختلفة. فالنصوص الآشورية القديمة من المستوطنة الآشورية كاروم كانيش في الأناضول تبين أن القصدير لعب دوراً هاماً في التجارة بين بلاد آشور والأناضول في القرن التاسع عشر قبل الميلاد. فقد كان ينقل بكميات كبيرة من آشور إلى كاروم كانيش بوساطة قوافل من الحمير تعبر الجبال والوديان والسهول لتصل إلى وجهتها.

أما عن الموطن الأصلي للقصدير فهناك آراء مختلفة، غير أن أرجحها القائل إن منطقة شمال غربي إيران هي الموطن الأصلي له^(١٨).

تشهد نصوص أرشيف ماري على قيام تجارة منظمة للقصدير بين ماري والمدن السورية المختلفة، في النصف الأول من القرن الثامن عشر قبل الميلاد. كانت ماري تحصل على القصدير بانتظام من الشرق عن طريق بري يمر عبر آشور^(١٩). وكانت تسد حاجتها من ذلك ثم تعيد تصدير الباقي باتجاه الغرب^(٢٠). وتشهد على هذا التصدير العديد من النصوص من عهد زمري ليم.

بالنسبة للتصدير إلى يمحاض يذكر أحد النصوص^(٢١) مايلي:

السطر ١١: خمسون مينة قصدير (نحو ٢٥ كغ) إلى ياريم ليم.

السطر ١٣: خمس مينات إلى أبي أدو Abi-Addu.

السطر ١٤: خمس مينات إلى يبخور أدو Iaphur-Addu.

السطر ١٥: رجلين من يمحاض.

هذان الرجلان من يمحاض كانا إما تاجرين أو عاملين بالمعادن من حلب^(٢٢).

ويذكر نص ثانٍ^(٢٣):

السطران ١ و ٢: خمسون مينة قصدير إلى ياريم ليم.

ويشير نص ثالث^(٢٤) إلى كمية من القصدير (١ تالنت و ٣/٢ ٥٣ مينة، أي نحو ٥٦ كغ) يجب أن ترسل إلى يحاض وقطنا.

ويذكر نص رابع^(٢٥):

الأسطر ٣ - ٤: ١٩ مينة و ٣ شيقيل قصدير إلى ياريم ليم.

السطر ٩: ٣ سبائك قصدير إلى ياريم ليم.

ونقرأ في نص خامس مايلي^(٢٦):

السطر ٧: ١٩ مينة و ٢ شيقيل قصدير إلى ياريم ليم.

السطر ١١: قصدير إلى ياريم ليم.

من الجدير بالذكر أن ياريم المذكور في هذه النصوص هو ياريم ليم الأول ملك يحاض، الذي كان بحاجة إلى القصدير أكثر من غيره لسد حاجات قصره وجيشه.

وهناك نص سادس^(٢٧) يتحدث عن عدة إرساليات من القصدير من ماري إلى يحاض، إلى الملك وإلى زوجته وأولاده وإلى أشخاص آخرين من حلب:

الأسطر ٣ - ٤: ١ تالنت قصدير من حمورابي البابلي إلى حلب.

الأسطر ١١ - ١٢: ٩ تالنت و ٢٧ مينة و ٨ شيقيل قصدير إلى ياريم ليم.

السطر ١٣: ١,٥ تالنت و ٧ شيقيل قصدير إلى السيدة جاشيرا (زوجة ياريم ليم الأول).

السطر ١٤: ٣٠ مينة قصدير إلى حمورابي (ابن ياريم ليم).

السطر ١٠: ٣/٢ ١١ مينة قصدير إلى سمسى أدو Samsi - adu.

السطر ١٥: ٣/٢ ١٦ مينة قصدير إلى طاب بلأطي Tab- baláti.

السطر ١٦: ٨ مينة قصدير إلى سين أبو شو في حلب (échalab).

من الواضح أن الأسماء الأولى هي أسماء أشخاص من العائلة المالكة.

أما الأسماء الثلاثة الأخيرة فهي أسماء أشخاص ربما كان لها ارتباط ما مع العائلة المالكة، أو ربما أسماء موظفين أو تجار.

ويذكر نفس النص إرسال كمية من القصدير إلى مدينة تدعى دور سومو إيوخ:

الأسطر ٣٧-٣٨: ٢ تالنت قصدير ... في Dur - sumuepuh.

هذه المدينة كانت تقع بلا شك في منطقة يمحاء وسميت بهذا الاسم (مدينة سومو إيوخ) نسبة إلى سومو إيوخ أول حاكم معروف حتى الآن من يمحاء، ويرد ذكره في نصوص ماري^(٢٨).

ويذكر نص سابع مايلي^(٢٩):

الأسطر ١٥-١٦: ٥٠ مينة قصدير إلى ياريم ليم.

السطر ١٧: ١٠ مينة قصدير إلى جاشيرا (زوجته).

بتبين لنا من النصوص المذكورة سابقاً، أن القصدير كان يصدر بانتظام من ماري إلى يمحاء.

ولم يتوقف استيراد المدن السورية، وبينها حلب، للقصدير بعد تدمير ماري على يد حمورابي البابلي عام ١٧٥٩ ق.م. فهناك رسالة بابلية^(٣٠) قديمة من عهده، تبرهن أن القصدير كان يُرسل من بابل إلى إيمار وحلب عن طريق الفرات، نقرأ في الرسالة مايلي:

إلى سيدي: هكذا (يقول) شماش رابي: كما يعرف سيدي نوجد في خدمة مدينة باصو منذ أن وضعت طوبة مدينة باصو من قبل حمورابي. (مايخص) السفن الصاعدة والنازلة مع التيار، فإننا تدع بعد تفتيش (السفن)، التاجر الذي يحمل لوح الملك (معه) يمر، (ولكن) التاجر الذي لا يحمل (معه) لوح الملك، نعيده إلى بابل. (ولكن) الآن منذ أن أسس بيت أنا توم وريش شماش في بابل يدع المرء كل (التجار) من إيمار وحلب يمرون عبري، ولكن لا أستطيع أن أفتش السفينة لديهم. الآن من أجل العشرة كور شعير التي أعادها سيدي إليّ - لأجل هذا الشعير - جئت إلى سيبار، ومار شماش الذي يقوم بعمل، كتب إليّ مايلي: "عندما ريش شماش والناس الذين (كانوا) معه، لا أعرفهم رسوا بسفيتهم عندي، نزلت إلى السفينة وأعلمت العشرة تالنت قصدير (التي) كانت معهم (في السفينة) (سلطات المدينة)، فضلاً عن ذلك أيضاً كيس جلدي مع أحجار (كريمة). كي لا يُلقى عليّ أي لوم كتبت إليك بذلك كي تسمع". هذا ما كتبه إليّ. بهذا أرسل رسالتي إلى سيدي. أرجو أن يأخذ سيدي قراراً بذلك ويبعث لي خبراً.

يتضح من هذه الرسالة أن تجاراً من إيمار وحلب أسسوا وكالة تجارية لهم في بابل لتأمين مصالحهم التجارية ومن بينها استيراد القصدير.

وقد لعب نهر الفرات دوراً هاماً في عملية التبادل التجاري والمواصلات بين ماري ويمحاض بشكل خاص. فالبضائع والمنتجات كانت تُنقل عبره في سفن متخصصة بذلك. فنصوص ماري تذكر سفناً متخصصة في نقل الخمر كما ذكرنا سابقاً، وأخرى متخصصة في نقل الحبوب وثالثة متخصصة في نقل القار، ورابعة متخصصة في نقل أحجار الجواريش.

وكان لإيمار (مسكنة حالياً) التابعة لمملكة يمحاض دور هام في التجارة والمواصلات بين ماري وبلاد بابل بشكل عام من جهة، ويمحاض وشمال سورية

بشكل عام من جهة أخرى، وذلك كمحطة تجارية وميناء هام يقصده التجار وتؤمه السفن الزاهبة إلى ماري وبلاد بابل.

ويظهر تجار من إيمار في نصوص ماري^(٣٢).

وكانت إيمار أيضاً عقدة مواصلات برية هامة حيث يمر عبرها الطريق البري القادم من بلاد بابل وماري كركميش ووادي البليخ، والطريق الزاهب جنوب غرب إلى قطنا^(٣٣).

من الجدير بالذكر أن إيمار كانت مدينة هامة في الألف الثالث قبل الميلاد، إذ يرد ذكرها مراراً في نصوص إيلا.

أخيراً تجدر الإشارة إلى أن التجارة بين ماري وبمحاظ كانت تجارة ملكية. فالملوك هم الذين يرسلون أو يتلقون البضائع والمنتجات المختلفة، كما يظهر من النصوص. أما العمليات التجارية فيقوم بها التجار المتخصصون، ولكن بتكليف من ملوكهم^(٣٤).

الهوامش

* ألقى هذا البحث في الندوة العالمية عن حلب وطريق الحرير التي نظمتها المديرية

العامة للآثار والمتاحف في سورية، حلب ١٩٩٤.

1- Dossin, G., *Les Archives épistolaires du palais de Mari*, in: Syria 19 (1938), P. 117.

2- ARM VII 238: 14.

3- ARM IX 33: 1.

4- ARM X 131, 132.

5- ARM VIII 126.

6- Mair, A., *Der Handel zwischen Syrian und Babylonien im 18. Jh. V. Chr.* Würzburg 1985, S. 81.

7- ARM XIII 65, 69, 74, 83, 85, 99.

8- Finet, A., *Le Vin á Mari*, in: AFO 25 (1974-77), P. 131.

9- ARM XXI 210: 5-9.

10-ARM VII 238: 15.

11-ARM VII 238: 16.

12-ARM IX 6.

13-ARMT IX {34, Sasson, J. M., *A Shetch of north syrian economic relations in the middle Bronze Age*, in: JESHO 9 (1966), P. 172.

14-ARM IX 9.

15-Mari, A., *Op. Cit.*, s. 69 ff.

١٦- مرعي، عيد، يخدون - إليم ملك ماري، وثيقة تأسيس معبد إله الشمس

(شماش) في ماري، مجلة دراسات تاريخية، ٢٧-٢٨، ١٩٨٧، ص ١٠٣.

- 17-Falkenstein, A., **Die Inschriften Gudeas von Lagaš, Einleitung**, Rom 1966, s. 46 ff.
- 18-Mari, A., **Op. Cit.**, s. 96.
- 19-Leemans, W.F., **Old Babylonian letters and economic history**, in: JESHO 11 (1968), P. 207.
- 20-Bottéro, **ARMT VII** {115, 117.
- 21-**ARM VII 86**.
- 22-Bottéro, **Op. Cit.**, {177.
- 23-**ARM VII 87**.
- 24-**ARM VII 88: 1-6**.
- 25-**ARM VII 233**.
- 26-**ARM VII 236**.
- 27-Dossin, G., **La route de L'Étain en Mésopotamie au temps de Zimrilim**, in: RA 64 (1970), P. 77 ff., Text A. 1270.
- ٢٨- يرد أقدم ذكر لسومو إيوخ في وثيقة تأسيس معبد شماش إله الشمس في ماري،
انظر مقالنا: يخذون — ليم ملك ماري، ص ١٠٤.
- 29-Dossin, G., **Une Opposition familiale**, in: Voix de L'Opposition en Mésopotamie, Bruxelles 1973, P. 179, Text A. 3412.
- 30-Frandena, R., **Briefe aus dem Britisch Museum**, Leiden 1966, Brief Nr. 84.
- 31-Mari, A., **Op. Cit.**, s. 131 ff.
- 32-**Ibid.**, s. 42.
- 33-**Ibid.**, s. 153.
- 34-**Ibid.**, s. 36, ff.

قائمة المراجع المختصرة:

- 1- **ARM** = Archives Royales de Mari.
- 2- **JESHO**= Journal of Economic and Social History of the Orient.
- 3- **RA** = Revue d Assyriologie et d' Archéologie Orientale.
- 4- **AFO**= Archive für orientforschung.

